

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

الفصل الأول

الفصل الاول

الشيخ الإمام عز الدين بن عبد السلام

والظروف السياسية والاجتماعية والعلمية التي عاصرها

تمهيد

إن الأحداث والظروف التي يعيش فيها الإنسان لا شك لها تأثير على شخصيته في المواقف والاتجاهات سواء أكانت اجتماعية أم علمية أو غيرها، لذا فدراسة سير الرجال ومجريات الأحداث ضرورة تفيد الباحث وتثير السجل أمامه وتعرفه بالشخصية ومواقفها.

وهذا كتاب من الكتب الجليلة التي قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فأنظروا كيف كان عقبة المكذابين^{١٧}، أي من الإنساق طوعا كان أو كافرا خيرا أو شرا^{١٨}، فدراسة مناقب الأئمة من العلماء الكبار من السنن في معرفة الحضارة الإنسانية والعلمية وهي من الأمور العلية إذ هؤلاء سبب في نقل الدين وحمل الشريعة المحمدية.^{١٩}

^{١٧} القرآن، سورة آل عمران: ١٣٧.

^{١٨} أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م، جامع البيان في تفسير القرآن، دار الطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ص ١٥/٤.

^{١٩} أبو عباس أحمد بن أحمد بابا التنبكي (٩٦٣هـ)، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص ٥.

لذا كان المقصد المرجو من هذا الفصل هو معرفة الشيخ الإمام عزّ الدين بن عبد السلام من خلال

دراسة حياته ووقائع الظروف التي عاصرها ثمّ النظر إلى بعض مؤلفاته لعلها تعرفنا بشيء من علم هذا الإمام

وشخصيته، غم البعد الزمني الذي حال بينه وبيننا.

وسيتكون هذا الفصل من ثلاثة المباحث وهي:

المبحث الأول: ترجمة الإمام عزّ الدين بن عبد السلام وحياته العلمية.

المبحث الثاني: الظروف السياسية التي عاصرها الإمام عزّ الدين بن عبد السلام.

المبحث الثالث: الحالة الاجتماعية والعلمية في عصر الإمام عزّ الدين بن عبد السلام.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

المبحث الأول

المبحث الأول

جامعة الإمام غفر الله له بن عبد السلام وحياته العلمية

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

المبحث الثاني: الظروف السياسية وعهد الملوك التي عاصرها الإمام عز الدين بن عبد

السلام

يتضمن هذا المبحث ثلاثة مطالب:

الأول: السيرة السياسية التي عاصرها بصورة عامة.

الثاني: الدولة الأيوبية والظروف السياسية فيها، ويتفرع إلى:

الفرع الأول: إقامة الدولة الأيوبية.

الفرع الثاني: تنازع أيوبي على السلطة وسقوط الدولة.

الثالث: تحول دولة المماليك وسبب ظهورها والأحداث التي مرت بها.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

المطلب الأول: البيئة السياسية العامة

بعد التعرف على شخصية الإمام الشيخ عز الدين بن عبد السلام ومن حوله، يأتي التعرف على البيئة المتعلقة بحياته، فقد عاش هذا الإمام الجليل في بداية الدولة الأيوبية وأوائل دولة المماليك إمتداداً من سنة ٥٧٧هـ إلى سنة ٦٦٠هـ، فكان العصر الذي عاش فيه شيئاً من الناحية السياسية كما يراه المؤرخون.

شهد هذا الفقيه الكبير كثيراً من الحروب الصليبية وانشقاق الدول الإسلامية عن الخلافة العباسية في عصرها الأخير، وكانت سلطة الخلافة والدول القائمة في مد وجزر مطلقين، والسلطة في تَمَوج شديد من ارتفاع وانخفاض من القمة إلى القاع وبالعكس والناس ينتقلون بين النور والظلام، والعزة والذل، والاستقلال والاحتلال، والوحدة والانفصال.

وفي المقابل ظهرت أهمي صراع تاريخ انتصار المسلمين على الصليبيين والتتار وتحرير بيت المقدس ووقف الزحف الهامشي وأهم حروب التتار فاستقرّ بعضهم في بلاد الشام ورحل الآخرون وهم حاملين ضياء الإسلام ونور الإيمان.

المطلب الثاني: الحالة السياسية في الدولة الأيوبية (٥٦٧-٦٤٨هـ / ١١٧٢-١٢٥٠م)

الفرع الأول: إقامة الدولة الأيوبية

تشكّل الدولة الأيوبية مرحلة مهمة في التاريخ الإسلامي، واضططعت بمهام عظيمة وجسيمة في حياة الأمة، وكان أمراؤها على قدر المسؤولية أحياناً، وعلى غير ذلك أحياناً أخرى.

يعدّ صلاح الدين يوسف بن أيوب المشتهر بصلاح الدين الأيوبي الشخصية المعروفة في التاريخ

الإسلامي، هو المؤسس الحقيقي للدولة الأيوبية.

كان صلاح الدين الأيوبي وزيرا في مصر بعد أن عينه الخليفة الفاطمي الذي أظهرت دولته مبادئها الشيعية وهو قبل ذلك كان نائبا عن السلطان نور الدين محمود الزنكي.

ومن ذلك الحين عمل صلاح الدين على أن تكون كل السلطات في مصر تحت يده وسيطرته، وأصبح هو المتصرف في الأمور، وباتت إعادة مصر تابعة لخلافة الدولة العباسية، فمنع الدعاء للخليفة الفاطمي وجعل الدعاء للخليفة العباسي، وأغلق مراكز الشيعة الفاطمية، ونشر المذهب السني^{٧٣}.

ثم أقام صلاح الدين جهود كبيرة حملة في إصلاح الأحوال الاجتماعية في مصر، فاهتم ببناء المنشآت العامة كالمستشفيات، وإصلاح المرافق والطرق، والإنفاق على المرضى والمحتاجين، كما عمل على توفير الحماية لمصر من خلال بناء قلعة صلاح الدين، لصدد الهجمات المحتملة الآتية من قبل الصحراء^{٧٤}. ورغم ذلك رأى صلاح الدين أن بحاجة إلى إقامة حملة خارجية لتحقيق ثلاثة أهداف، وهي:

الأول: توسيع رقعة الدولة الإسلامية.

والثاني: تحصين إنجازاته التي حققها في مصر.

والثالث: تأمين حدود بلاده حتى لا يقع على فخذه.

^{٧٣} ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ص: ٢٢٥/٩، وابن كثير، البداية والنهاية، ص: ٥٣/١٣.

^{٧٤} الدكتور أمينة البيطار، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، تاريخ العصر الأيوبي، دار الطباعة الحديثة، دمشق، ص: ٤٢ - ٤٥، وابن الأثير، الكامل في التاريخ،

ص: ٢٢٥/٩، وابن كثير، البداية والنهاية، ص: ٥٣/١٣.

بدأ صلاح الدين التوجه إلى بلاد الشام بعد وفاة السلطان نور الدين الزنكي، فدخل دمشق، ثم استولى على حمص، ثم حلب وباقي الولاية الشامية، وأصبح صلاح الدين سلطاناً على مصر والشام لإقامة دولته الأيوبية، ثم عاد إلى مصر وبدأ الإصلاحات الداخلية، خاصة في القاهرة والإسكندرية، فسافر إلى الشام بعد ذلك لبدء ما كان قد بدأه من قبل، وهو جهاده المشرق ضد الصليبيين.

أخذ صلاح الدين ينفذ سياسته في إعادة بناء الجبهة الإسلامية المتحدة بحيث تمتد من شمالي العراق إلى بلاد الشام فمصر، ليتمكن بعد ذلك من البدء في حركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين، والمسلمون الذين ما يكونون قوة وتماسكاً.

وكانت دولة الأيوبيين قد امتدت إلى بلاد الحجاز، حيث قام صلاح الدين بتحسين جنوب فلسطين، والاستعداد لأي أمر يقوم به الأباطر صاحب قلعة الكرك، الذي كان يدبر للهجوم على الأماكن المقدسة في مكة والمدينة.

وعقب استيلاء صلاح الدين على بيت المقدس سقطت في يده كل موانئ الشام، فيما عدا موانئ إمارة طرابلس وأنطاكية، وانتهت الحروب الصليبية بصلح الرملة بين صلاح الدين والصليبيين.

فظل صلاح الدين رافعاً راية الجهاد حتى صعدت روحه إلى بارئها عام ٥٨٩هـ / ١١٩٣م بعد أن قسم دولته بين أولاده وأخيه العادل، ولكنهم تناحروا فيما بينهم، وظل بعضهم يقاتل بعضاً في ظروف كانت الدولة تحتاج فيها إلى تجميع القوى ضد الصليبيين ممن يكيدون للإسلام، ولقد ترك صلاح الدين بعد وفاته دولة واسعة الأرجاء، وخلف سبعة عشر ولداً وبناتاً واحدة.

الفرع الثاني: تنازع أيوبي على السلطة وسقوط الدولة

كان صلاح الدين رحمه الله قد وزَّع خلال حياته السياسية البلاد الواقعة تحت سيطرته على أفراد عائلته وأخيارناهم سلطات فعلية لممارسة السيادة، فتقاسم هؤلاء التركة بعد وفاته في ظل ما حدث من المؤامرات والحروب بينهم، إذ أن كلاً منهم يطمع أن يكون نصيبه يضارع نصيب جاره أو يفوقه، بالإضافة إلى ترعُّم العائلة الأيوبية، وبعد وفاة صلاح الدين الأيوبي أستلما منه الخلافة إثنان من سلالته هما العزيز بن صلاح الدين الذي تولى الحكم من سنة ٥٨٩هـ إلى سنة ٥٩٥هـ (١١٩٣ م / ١١٩٨ م) ثم ابنه المنصور بن العزيز سنة ٥٩٥ - ٥٩٦هـ (١١٩٨ م).

وقد أخذت الجبهة الإسلامية في التداعي بعد وفاة صلاح الدين ولم تلبث أن نشبت حرب الوراثة بين أبناء البيت الأيوبي، فاتفق أمراء الخيام على ألا يعترفوا بسيادة العزيز في مصر، وكان هذا الرفض نابعاً من دعوى أن أهمية دور دمشق في توجيه السياسة الأيوبية.

فمرّت الدولة الأيوبية خلال تلك الفترة بفترة تطورات سريعة وانتهت بتوحيدها مرة أخرى تحت زعامة العادل أخي صلاح الدين بعد صراعات طويلة بين أبناء صلاح الدين فيما بينهم من جهة وبين عمهم العادل من جهة أخرى.

وهكذا أعاد العادل توحيد الدولة الأيوبية تحت سلطانه، ولكن من المؤسف أنه قد ارتكب الخطأ نفسه الذي ارتكبه صلاح الدين عندما وزَّع بين أولاده وأخوته، مما أدى إلى إضعاف الأيوبيين، لأن

هذا التوزيع سبب التنافر والتحاسد بين الإخوة، وأعاد من جديد المأساة التي حدثت بعد وفاة صلاح

الدين^{٧٥}.

لقد تولى الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل حكم مصر سنة ٦٣٧ هجرية، وبقيت الفتنة بينه وبين عمه الصالح إسماعيل بن العادل حاكم دمشق، إذ حدثت بينهم مناوشات وحروب، واستعان الصالح إسماعيل بحاكم دمشق بالفرنجة وتنازل لهم عن حصن قلعة السقيف ومدينة صيدا وذلك ليساعده على استيلاء حكم مصر من الصالح^{٧٦}.

كان الشيخ عز الدين بن عبد السلام في ذاك الوقت خطيباً للجامع الأموي، فلم يستمر في الخطابة سوى سنة تقريباً، وفقد المنصب بسبب شجاعته وقرعه بالنكير على صنيع الصالح إسماعيل حاكم دمشق فوق المنبر، فترك الدماء له في الخطبة، فألقي بحرمة التعاون وبيع السلاح للفرنجة بعد أن ثبت أنه يُستخدم في محاربة المسلمين، ثم أعقب ذلك خطبة مدوية في الجامع الأموي قبح فيها الخيانة وغياب النجدة والمروءة، وذم ما فعله السلطان صلاح الدين بالخطبة. وما كان من الصالح إسماعيل إلا أن أقدم على عزل الشيخ الجليل عن الخطابة والإفتاء، وأمر باعتقاله، ثم فك حبسه بعد المدة القصيرة جداً من وفاة تأثير الإمام عز الدين بن عبد السلام على الناس وغضبته وألزمه في بيته، ومنعه من الإفتاء والخطابة، ثم طلب من الشيخ عز الدين مغادرة الشام، فغادرها إلى مصر

^{٧٥} الدكتور أمينة البيطار، تاريخ العصر الأيوبي، ص: ٢٢٩، ٢٤٤.

^{٧٦} ابن السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ص: ٢١٠/٨، ويوسف بن تغري البردي الأتابكي جمال الدين أبو الحسن (ت ٨٧٤م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، قدم له وعلق عليه: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ص: ٣٣٨/٦.

وذلك في سنة تسع وثلاثين وستمائة (٦٣٩هـ)^{٧٧}، فقبول بالترحاب هناك من سلطانها الملك الصالح نجم

الدين أيوب بن كامل ومن علمائها وأهلها، وولاه السلطان الخطبة في جامع عمرو بن العاص وولاه رئاسة

القضاء وفوض إليه عمارة المسجد المهجورة بمصر والقاهرة^{٧٨}.

وتوحدت قوى الشام الأيوبيين مع الصليبيين في جيش كبير، وبدأ الزحف في اتجاه مصر فأعد الملك

الصالح جيشه، ووضع على قيادته أكفأ قادته وهو ركن الدين بيبرس، واستعد للمواجهة، وكان الجيش

المصري قليلاً وضعيفاً إذا قورن بالأعداد الكبيرة لجيوش الشام والصليبيين.

والملك استعان الملك الصالح بالجنود الخوارزمية الذين كانوا قد فروا من قبل من منطقة خوارزم

بعد الاجتياح التتري لها، وكان هؤلاء الجنود الخوارزمية جنوداً مرتزقة بمعنى الكلمة؛ بمعنى أنهم يتعاونون مع

من يدفع لهم، ويعرضون خدماتهم العسكرية في مقابل المال؛ فاستعان بهم الملك الصالح أيوب بالأجرة،

ودارت موقعة كبيرة بين جيش الملك الصالح أيوب وبين قوى التحالف الأيوبية الصليبية، وعُرفت هذه

الموقعة باسم موقعة عرقة، وكان في سنة ٦٤١ هجرية.

وانتصر فيها الملك الصالح حاكم مصر انتصاراً ساحقاً، وقُتل من الصليبيين أعداد كبيرة وصلت إلى

ثلاثين ألف مقاتل، وأسرت مجموعة كبيرة من أمرائهم وملكوكهم، وكذلك أُسرت مجموعة من أمراء

الأيوبيين، واستغل الصالح أيوب الفرصة واتجه إلى بيت المقدس الذي كان الأيوبيون في الشام قد تنازلوا

عنه للصليبيين، فاقتحم حصون الصليبيين، وفتح المدينة المباركة بجيشه المدعوم بالخوارزمية في سنة ٦٤٣

هجريّة.

^{٧٧} ابن السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ص: ٢١٥/٨.

^{٧٨} المصدر السابق، ص: ٢٤٤/٨.

وبذلك حرّر بيت المقدس نهائياً، ولم يستطع جيش نصراني أن يدخله أبداً لمدة سبعة قرون كاملة،

إلى أن دخلته الجيوش البريطانية في الحرب العالمية الأولى في يوم ١٦ من نوفمبر سنة ١٩١٧ ميلادية.

ثم أكمل الملك الصالح أيوب طريقه في اتجاه الشمال، ودخل دمشق، ووحد مصر والشام من جديد، بل اتجه إلى تحرير بعض المدن الإسلامية الواقعة تحت السيطرة الصليبية، فحرّر بالفعل طبرية وعسقلان وغيرهما.

غير أنه حدث تطور خطير جداً في جيش الصالح أيوب رحمه الله، حيث انشقت عن جيشه فرقة الخوارزمية المأجورة، وذلك بعد أن استمالها أحد الأمراء الأيوبيين بالشام مقابل دفع ما لأكثر من الأموال التي فيها لهم الصالح أيوب، ولم تكتفِ هذه الفرقة بالخروج، بل حاربت الصالح أيوب نفسه، ولم يثبت معه في هذه الحرب إلا جيشه الأساسي الذي أتى به من مصر، وعلى رأسه قائده المحنك ركن الدين بيبرس. فخرج الصالح أيوب من هذه الحرب وهو يدرك درساً مهماً على أنه لا بد أن يعتمد على الجيش الذي يدين له بالولاء شخصه لا بالمال، فبدأ في الاعتماد على طائفة جديدة من الجنود بدلاً من الخوارزمية، وكانت هذه الطائفة هي: "المماليك"^{٧٩}

فاستعان بأجناد من المماليك المجلوبة من مختلف البلاد المجاورة وازداد نفوذ هؤلاء المماليك بسبب استمرار الحروب بين أبناء البيت الأيوبي والآن السلطان نجم الدين الأيوبي توفي سنة ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م وهو يحارب الصليبيين فاضطرت زوجته شمس الدر لإحفاء موته حتى يحضر المسلمون على الصليبيين في موقعة المنصورة ثم فارسكور سنة ٦٤٧هـ / ١٢٥٠م

^{٧٩} الدكتور محمد سهيل الطقوش، ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، دار النفائس للطباعة والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ص: ١٥ - ١٦.

وبعد عهد الصالح نجم الدين أيوب، تولّى ابنه تورانشاه الذي لم يكن على قدر المسؤولية؛ فان شغل

بالله وبعد انتصاره على الصليبيين، وأساء معاملته قادة الجيش من المماليك، وكذلك أساء إلى زوجة أبيه

شجرة الدر.

فتآمرت شجرة الدر مع فارس الدين أقطاي وركن الدين بيبرس وقلاوون الصالحي وأبيك

التركماني وهم من المماليك الصالحة البحرية على قتل "توران شاه"، وذلك في يوم ٢٧ محرم سنة ٦٤٨

هـ.^{٨٠}

ثم تولت شجرة الدر زوجة الصالح نجم الدين الحكم بعد موت توران شاه بالاشتراك مع الأمير أبيك

التركماني في إدارة الحكم، وهكذا انتهى حكم الدولة الأيوبية في مصر بعد أن حكموها إحدى وثمانين سنة

ليبدأ بعد ذلك عصر المماليك.^{٨١}

لقد أظهر الشيعة عن الدين موقفه وقلقه من ولاية شجرة الدر حيث ذكر: (لما تولت شجرة الدر

على الديار المصرية عمت في ذلك مقامه وذكرت فيلها ابتلى الله به المسلمين بولاية امرأة عليهم وكانت

سلطتها يوم الخميس ثاني صفر سنة ثمان وأربعين وسبعمائة).^{٨٢}

^{٨٠} الوهبي، العز بن عبد السلام، ص: ٢٣، والمقريزي، السلوك، ص: ٣٢٧/١، والظفوش، تاريخ المماليك، ص: ٩٠-٨٨.

^{٨١} ابن كثير، البداية والنهاية، ص: ١٧٨/١٣ و ١٩٨، وتقي الدين أحمد بن علي المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، دار الكتب المصرية، بالقاهرة، ص: ٣٦٨/١ و ٤٠٣.

^{٨٢} محمد بن أحمد بن إياس الحنفي المصري، ١٩٦٠، بدائع الزهور في وقائع الدهور، مطابع الشعب، ضمن سلسلة كتاب الشعب، ١٩٧٠، ص: ٢٨٦/١.

المطلب الثالث: دولة المماليك (٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)

في تاريخ الأمة الإسلامية قامت دولة على أكتاف الرقيق الذين كانوا في الأصل قد جُلبوا من مختلف البلدان لأجل الحروب، ولأجل حماية الخلفاء والسلطين.

وهذه الدولة هي دولة المماليك التي قامت بجهـد عظيم في الدفاع عن الإسلام وإقامة مجد، بعد سقوط الدولة الأيوبية.

أجمع المؤرخون على أن دولة المماليك تنقسم إلى قسمين: الأول البحري أو الممالك البحرية والثاني

البرجي أو الممالك الجراكسة^{٨٣}:

المماليك البحرية وهم الذين أسكنهم الملك الصالح الأيوبي قلعة في جزيرة الروضة، ونسبوا إلى بحر

النيل أو سمّوا بذلك لأنهم قدموا من وراء البحار، وهؤلاء حكموا مصر من سنة (٦٤٨-٧٨٤هـ/

١٢٥٠-١٣٨٢م) تداول عرش مصر في عهدهم أربعة وعشرون سلطاناً، وعاصر الشيخ عز الدين

من حكام هذه الدولة عز الدين أيبك والمنصور قطز والظاهر بيبرس^{٨٤}.

٢. المماليك البرجية أو الجراكسة، فهم من القسم الثاني، وسمّوا بذلك لأن السلطان قلاوون أسكنهم

أبراج قلعة الجبل، ولأن الجراكسة كانوا أكثر عدداً، وهؤلاء حكموا مصر من سنة (٧٨٤-

^{٨٣}المقريزي، السلوك، ص: ٣٢٧/١.

^{٨٤}ابن كثير، البداية والنهاية، ص: ١٩٨/١٣، والمقريزي، السلوك، ص: ٣٦٨/١.

٩٢٣هـ / ١٣٨٢-١٥١٧م) وهم ثلاثة وعشرون سلطاناً، ولم يعاصرهم الشيخ الإمام عز الدين

بن عبد السلام.

لقد حدث فراغ سياسي كبير بقتل تورانشاه، فليس هناك أيوبي في مصر مؤهل لقيادة الدولة، وتعدّ مدة حكم شجرة الدر القصيرة وهي ثمانون يوماً الفترة الانتقالية من الدولة الأيوبية إلى المماليك لأنها زوجة الملك الصالح أيوب، وهي في نفس الوقت تعتبر من المماليك، لأن أصلها جارية وأعتقت، كما أنها في النهاية امرأة، ويستطيع المماليك من خلالها أن يحكموا مصر، وأن يوفرُوا الأمان لأرواحهم. تزوجت شجرة الدر من أحد قادة المماليك وهو "عز الدين أيك"، الذي استلم الحكم منها وأصبح سلطاناً على مصر، وبذلك وصل المماليك إلى حكم مصر خلفاً للأيوبيين^{٨٥}.

وبعد أن استلم عز الدين أيك قيادة البلاد، كان من المنتظر أن تنعم البلاد بالهدوء بعد الفوضى والقتال، وينعم هو بزعمه بلده شأن، ولكن ذلك لم يدم، حيث حدث خلاف بينه كالسلطان وزوجته شجرة الدر فبدأ أن يفكر في التخلص منها، غير أنها كانت أسيرة منه، فدبرت مؤامرة لقتله في (٢ من ربيع الأول ٦٥٥هـ / ١١ من إبريل ١٢٥٧م)، ثم لم تلبث هي الأخرى أن قُتلت بعده بأيام قليلة^{٨٦}.

وبعد مقتل سلطان عز الدين أيك فقد المماليك حكم مصر لأن سيدهم المدعو نور الدين علي بن أيك، وكان في الخامسة عشرة من عمره.

^{٨٥} ابن كثير، البداية والنهاية، ص: ١٩٩/١٣ و المقرئ، السلوك، ص: ٣٦١/١ و ٤٠٣.

^{٨٦} المصادر نفسها.

ولما تعرض الشرق الإسلامي لخطر هجوم المغول الذي اجتاحت الشام وأصبحت مصر على مقربة من هذا الخطر، قام قطز نائب السلطنة بعزل السلطان الصغير، وتولى الحكم لمواجهة الخطر المغولي اللدود، وخرج قطز إلى ملاقاتة المغول في "عين جالوت" وحقق نصرا تاريخيا في (٢٦ من رمضان ٦٥٨هـ = ٣ من ديسمبر ١٢٦٠م)، وطرد المغول من المنطقة، وضمّ الشام إلى سلطان المماليك الذين أصبحوا سادة الموقف، ومن بينهم مقاليد الأمور في مصر والشام^{٨٧}.

وكان يريد السلطان المظفر قطز أخذ الأموال من الشعب ليستعين بها على حرب المغول وكان مستشير الشيخ عوالدين بن عبد السلام فقال له الشيخ: (إذا لم يبق في بيت المال شيء وأنفقتم الحوائص الدود ونحوها من الرينة وسائر يتم العامة في الملابس سوى آلات الحرب ولم يبق للجندى إلا فرسه التي يركبها ساء لأخذ من أموال الناس لإنفاقه في دفع الأعداء.... فالمال يؤتى به إذن... ولا حق لأحد فيه غيرهم وليس للسلطان رد أمرائه ولا لسيانهم حق) فيه^{٨٨}.

فموقف الإمامين الذين صاروا واضحا على أن أخذ أموال الشعب جائز بشرط نفاذ خزانة الدولة واستواء الرعية والسلطان والمراء في العيشة والملابس والركوب، وهذا دليل واضح على اهتمامه في بيان التزام الدولة في حفظ المصالح لعامة الشعب وأغم الجدييات والتهديدات.

ثم تولى الحكم السلطان الظاهر بيبرس إثر مقتل السلطان المظفر قطز حين رجوعه إلى مصر من عين جالوت بعد انتصارهم على المغول^{٨٩}.

^{٨٧} ابن كثير، البداية والنهاية، ص: ٢١٦/١٣ و ٢٢٠، والمقرئ، السلوك، ص: ٤٠٣/١.

^{٨٨} الوهبي، العزيز بن عبد السلام، ص: ٢٥، وأبو المحاسن الأتابكي، النجوم الزاهرة، ص: ٧٢/٧.

^{٨٩} ابن كثير، البداية والنهاية، ص: ٢٢٢/١٣ - ٢٢٣، والمقرئ، السلوك، ص: ٤٣٦/١.

ومن الأمثلة التي تدل على براعة شخصيته انه عندما استدعى الظاهر بيبرس الأمراء والعلماء لمبايعته،

الإمام عز الدين بن عبد السلام امتنع عن البيعة وفاجأ الظاهر بيبرس والحاضرين بقوله: يا ركن الدين أنا
أعرفك، فلو كانا لندقدار^{٩٠} أي لاتصح بيعته، لأنه ما زال مملوكاً والمملوك غير مؤهل للتصرف.

فلما أحضر الظاهر بيبرس ما يثبت أن البندقدار قد وهبه للملك الصالح أيوب الذي أعتقه واقتنع
الشيخ عز الدين بذلك الإثبات، تقدم فبايع بيبرس على الملك^{٩١}، وكان الظاهر بيبرس بعد ذلك الحدث
يعظم الشيخ العز وشمسه، ويعرف قدره، ويقف عند أقواله وأقبل رأيه فتاواه، لا يستطيع أن يخرج عن
مذاهبه حتى أنه قال لما مات الشيخ قال: (لم يستقر ملكي إلا الساعة، فإنه لو أمر الناس في شأني بما أراد
لبادروا إلى إمتثال امره)^{٩٢}

فالشيخ الإمام عز الدين بن عبد السلام، بموقفه الصريح وشخصيته العالية قد وضع نفسه في مناقب
العلماء الصادقين الذين لم يشغلهم مؤلفاتهم ولا تفرغهم الوظائف ولم تمنعهم المناصب عن إبلاغ كلمة
الحق، وتبصير الناس، وتوضيح الحكام وإرشادهم، ومحاسن ميادين الجهاد، دون النظر إلى سخط حاكم
ومقت محكوم فداء لمرضاة الخلق وإقامة المصالح للمخلوقين فحمل التاريخ حوافل سيرتهم العطرة، ذكرهم
الله في كتابه: ﴿ فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أولئك على المؤمنين أعززة على الكافرين يجهدون في سبيل الله

^{٩٠} هو اسم لشخص وكان مالك للظاهر بيبرس، الإسوي، طبقات الشافعية، ص: ١٩٩/١.

^{٩١} ابن قاضي شعبة، طبقات الشافعية، ص: ١٢٩/٢، والإسوي، طبقات الشافعية، ص: ١٩٩/١، والحافظ الداودي، طبقات المفسرين، ص: ٣١٦/١

^{٩٢} الحافظ الداودي، طبقات المفسرين، ص: ٣١٦/١، وابن قاضي شعبة، طبقات الشافعية، ص: ١٢٩/٢، والإسوي، طبقات الشافعية، ص: ١٩٩/١.

ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم^{٩٣} وكما وصفهم الباري في كتابه العزيز

بقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾^{٩٤}.

وتقدم ذكره أن وفاة الشيخ الإمام عز الدين بن عبد السلام هي في عهد الظاهر بيبرس في مصر

وذلك سنة ٦٦٠هـ - ٩٥.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

^{٩٣} القرآن، سورة المائدة: ٥٤.

^{٩٤} القرآن، سورة الفاطر: ٢٨.

^{٩٥} أبوشامة، النذيل على روضتين، ص: ٢١٦، وابن السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ص: ٢٤٨/٨.

المبحث الثالث: الحالة الاجتماعية والعلمية في عصر الشيخ الإمام عزّ الدين بن عبد السلام

ويتضمن هذا المبحث مطلبين:

المطلب الأول: الحالة الاجتماعية التي عاصرها الإمام الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام.

المطلب الثاني: الظروف العلمية التي عاصرها الإمام الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
 جامعة العلوم الإسلامية الماليزية
 ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

المطلب الأول: الحالة الاجتماعية

كانت الفترة الزمنية التي عاصرها الشيخ الجليل سلطان العلماء الإمام عز الدين بن عبد السلام وعاشتها الأمة الإسلامية تجمع المتناقضات من الصلاح والفساد والوحدة والتمزق والعزة والذل والغنى والفقر والطمع والجهل^{٩٦}.

ويمثل هذا العصر أشدّ العصور التي شهدتها تاريخ المسلمين اضطراباً وكما تقدّم ذكره فقد كان مليئاً بالحروب والفتن سواء أكانت نزاعات داخلية وعداوة بين السلاطين والأمراء أنفسهم أو هجمات خارجية من الأعداء من جنود الصليبيين والمغول^{٩٧}.

فالأحداث التي يواجهها الفرد أو المجتمع لا شك ستنتقش آثاراً عميقة في الشخصية والمواقف، والحروب المستمرة جعلت الناس في قلق دائم إذ يظلّ الناس في فرع دائم وخوف مستمر.

تعودّ المجتمع في ذلك الوقت على هذه الأحوال المضطربة حتى أدّى ذلك إلى انخفاض معنوياتهم وعدم القدرة على المقاومة وقلة الاهتمام وعدم الاكتراث بالغير^{٩٨}.

ومن المعلوم أنّ الحروب نفسها غالباً تجرّ إلى ضروب كثيرة من التدمير والهدم والكوارث الإنسانية والتخريب كما حكى الله تعالى في سورة النمل: ﴿إِذْ الْمُلُوكُ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾^{٩٩}.

^{٩٦} الزحيلي، العز بن عبد السلام، ص: ١٩.

^{٩٧} الوهبي، العز بن عبد السلام، ص: ٣٣/١، وابن الأثير، الكامل في التاريخ، ص: ٣٧٥/١.

^{٩٨} ابن السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ص: ٢١١/٨ - ٢١٢، وابن كثير، البداية والنهاية، ص: ٩/١٣ و ١٢، والوهبي، العز بن

عبد السلام، ص: ٢٨/١.

^{٩٩} القرآن، سورة النمل: ٣٤.

ولعل ما يقرب هذا التصور ما نشاهده في الوقت الحاضر مما يصيب شعوب المسلمين في

فلسطين والعراق وأفغانستان وكمبوديا والصومال والبوسنة من مأساة بشرية وفساد اجتماعي، وانتشار

شائكة الحياة من الفقر والعناء والأمراض وكذلك البؤس والشقاء التي أدت إلى الانحلال والضعف.

فكانت الحالة المالية والمعيشية لعامة المجتمع في دمشق ومصر في ذاك العصر سيئة للغاية وسلبية،

ومن المعروف أن المال هو مصدر استقرار حياة الفرد والمجتمع وهو من الأسس المهمة في بناء الدولة

وعمارتها ودعم الحركة الاجتماعية^{١٠٠}.

فظهر الجلاء في مصر سنة ٦٢٨هـ وفي دمشق سنة ٦٣٧هـ وفي سنة ٦٤٤هـ بسبب

الحروب والتزاع وحدوث الضوضاء في المجتمع بسبب قطاع الطرق وبقيت الصعاليك والنهب في

الطرق المصرية والشامية، كانوا يطلبون لقمة ثم صاروا يطلبون فلساً^{١٠١}.

المطلب الثاني: ظروف العلماء والعلمية

رغم سوء الحالة الاجتماعية والمالية ظهر اهتمام الدولة بدور العلماء واستشارهم عند اتخاذ القرار في

شؤون الدولة وأمور الرعية، وذلك قد وضعتهم الدولة والمجتمع في مكانة سامية ومترلة رفيعة، فالعلماء

هم حراس الشرع والمحامون عن حقوق الأمة والأفراد.

فتقدير الدولة لدور العلماء في الشؤون الإدارية والاجتماعية واحترامها لولايتهم يدل على

صورة واضحة لموقف رجال الدولة من السلطان والأمراء في ذاك العصر مع الحق والعدالة واهتمامهم

بالدين والخضوع للأحكام الشرعية والالتزام بها، فهذا في نظر الباحث من المبادئ السياسية المهمة لدولة

^{١٠٠} ابن كثير، البداية والنهاية، ص: ٩/١٣ و٢١٢، والدكتور حسن إبراهيم حسن، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، تاريخ الإسلام السياسي

والاجتماعي والثقافي والاجتماعي، دار الجيل بيروت ومكتبة النهضة المصرية القاهرة، الطبعة الرابعة عشر، ص: ١٣٣/٤.

^{١٠١} الدكتور حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام السياسي والاجتماعي والثقافي والاجتماعي، ص: ١٣٣/٤.

المسلمين حيث جعلها بعيدة عن المحن والآفات من الشكوك والاعتراضات والمخالفات الشرعية، ولعل الشعوب تحس بالأمن والسلامة عندما ترى أن الدولة في يد الأمراء الأمناء وينظرون أئاماً معهم في السراء ولم تهملهم في الضراء والعناء وبهذا ستتحرّك معنوياتهم إلى ما يستفزهم للدفاع عن كرامة الوطن وشرفه.

فالعلماء جزء من الشعب ولكن لهم مركز الصدارة والريادة والزعامة ويحظون بالثقة والاحترام والتقدير ويؤمل بعضهم المناصب المهمة والحساسة والخطيرة في الدولة وهم مصدر التوجيه الديني والنفسي والروحي والسياسي^{١٠٢}.

والأمثلة التاريخية أكثر من أن تحصى ومنها عماد الدين الزنكي الذي كان يطلب من العلماء الاستفتاء معه وفقههم سبل البحث والعلم والاجتهاد، وقد فتح ابنه نور الدين الزنكي المدارس الكثيرة، وكان صلاح الدين الأيوبي كثير الحضور لمجالس العلماء ويتلقى الدروس من القاضي بهاء الدين بن شداد^{١٠٣}، وكان الملك الكامل يدرس على أيدي العلماء حتى نال الإجازات العلمية وكان حريصاً على عقد الندوة العلمية في بيته كل خميس ليحضرها العلماء^{١٠٤}.

فالظروف السيئة والقصور في العيش والمصائب لم تجعل المجتمع يفرط بالدين والعلم ولم تجعله يستخف بالعلماء بل كان كل ذلك من الأسباب التي تدفعهم ظامئين في البحث عن الإرشاد الإلهي والالتجاء إلى ظلاله ويكون تقرب العباد إلى الله جل جلاله لطمئن القلوب ويسكن الجنان، والعلماء

^{١٠٢} الزحيلي، العز بن عبد السلام، ص: ٣١.

^{١٠٣} المصدر نفسه.

^{١٠٤} أبو شامة، الذيل على روضتين، ص: ٩/١، والدكتورة أمينة البيطار، تاريخ العصر الأيوبي، ص: ٢٠١، والزحيلي، العز بن عبد السلام،

ص: ٣٣-٣٤.

في ذلك العصر قد أدوا أدوارهم المهمة في الارشاد والتوعية للمحافظة على الشعب والدولة بالدعوة إلى الإيمان والدفع عن الخلل والانحطاط^{١٠٥}.

فهذه هي الحال التي أصابت مجتمع المسلمين من مصائب ومحن تغلغت في حياتهم فأدت إلى الزهد في العيش ودفعت المسلمين إلى البحث عما يجدون فيه سلوى نفسية وراحة قلبية وهدوء الذهن، ولذا العصر تأثر التصوف والحركة الصوفية عند المسلمين في ذاك العصر وكثر المتصوفون والزهاد والعباد وكذلك كثرت المراكز الصوفية مثل الخوانق والزوايا والرباط ونحوها^{١٠٦}.

وكان العلماء يعنون في هذا العصر بالتدريس وعكفوا على التأليف والتصنيف وأصبحت حركة التأليف نشطة مزدهرة، فقد تم تدوين العلوم المختلفة من شرعية ورياضية وطبيعية وغيرها. وقد شاركت الدولة في ذلك بإقامة المراكز العلمية واعتنت عناية خاصة بإنشاء المدارس والمساجد. كان تمويل معظمها من الأوقاف وبيت مال المسلمين^{١٠٧}، وذلك بإسهام المتبرعين من الأمراء والأغنياء الذين سارعوا إلى إتقانهم في الإنفاق والصدقات^{١٠٨}.

^{١٠٥} الزحيلي، العزيز بن عبد السلام، ص: ٣٤.

^{١٠٦} ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ص: ٣٨٥/٩، وابن شاكر، فوات الوفيات، ص: ١٥٥/٢، وابن السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ص: ٢١٠/٨.

^{١٠٧} ابن السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ص: ٢١٨/٨، وابن حجر، البداية والنهاية، ص: ٦١/١٣، رحلة ابن جبير، ص: ٢٥٨.

^{١٠٨} ابن السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ص: ٢٤٤/٨، والحافظ الداودي، طبقات المفسرين، ص: ٣٢٢/١، وابن كثير، البداية والنهاية، ص: ١٥٩/١٣، وابن جبير، رحلة ابن جبير، ص: ٢٥٥ و ٢١١ و ٢٥٨، والدكتور أحمد فكري، ١٩٦٩م، مساجد القاهرة ومدارسها، دار المعارف بمصر، القاهرة، ص: ٤٩-٥٠.

وكان هناك بعض المدارس الموقوفة على تدريس المذاهب الأربعة، كما وجدت بعض المدارس

المختصة بتدريس علم من العلوم^{١٠٩}، وكان الملوك والأمراء يكرمون العلماء وطلاب العلوم بالنفقات

والمجريات الوافرة محبة للعلوم والدين^{١١٠}.

تولى إدارة المدارس العلماء المشهود لهم بالكفاءة والصلاح مثل الآمدي والحافظ المنذري والشيخ

الإمام عبد الدين بن عبد السلام^{١١١}، وكانت هذه المراكز الثقافية من مساجد ومدارس بمثابة جامعات

علمية يلج إليها الملوك والعلماء على سواء وكذا الكبير والصغير، ويلتزم طلاب العلم الشيوخ ويجالسونهم

ولا يحرم الفقهاء من أن يتشققوا بالعلوم والمعرفة بسبب فقرهم بل كانت هناك حوافز ومساعدات

ونفقات وتبرعات ورعايات من الدولة والأمراء.

نشرت المخطوطات الثقافية والعلمية في المساجد والمدارس إلى كثرة المكتبات التي تزخر بشتى أنواع

الكتب والمفاتيح وأصبحت من أهم مراكز نشر العلوم والثقافة الإسلامية وكانت هذه المكتبات على

نوعين:

١. المكتبات العامة مثل المكتبة الفاضلية في دمشق ومكتبة دار الحكمة والنظامية في بغداد^{١١٢}.

٢. المكتبات الخاصة مثل مكتبة جمال الدين القطفي ومكتبة الموفق بن مطران الدمشقي^{١١٣}.

^{١٠٩} ابن كثير، البداية والنهاية، ص: ١٣٩/١٣ و ١٥٩، ابن الأثير الكامل في التاريخ، ص: ٢٤٠/٢٤٠ والمقرئ، السلوك: ٣٠٨/١ و ٣٩٤، وجلال الدين السيوطي، حسن المحاضرة، ص: ٢/٢، والدكتور أحمد فكري، مساجد القاهرة ومدارسها، ص: ١٠٨-١١١.

^{١١٠} ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ص: ٣٧٤/٩.

^{١١١} ابن كثير، البداية والنهاية، ص: ٢٤/١٣ و ١٤٤ و ٢١٢، وابن قاضي شعبة، طبقات الشافعية، ص: ٢/٢٠-٢١.

^{١١٢} ابن كثير، البداية والنهاية، ص: ٧/١٣ و ٢٤، وتقي الدين أحمد بن علي المقرئ، ١٩٩٨م، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقرئية، بتحقيق مديحة الشرقاوي، مكتبة مديبول، لم تذكر عدد الطبعة، ص: ٢/٢٥٥ ومن روائع حضارتها: ٢٢٧.

^{١١٣} المصادر نفسها.

كما كانت هناك أنشطة علمية أخرى مثل المناظرات والمناقشات بين رجال المذاهب والفنون وكان لها دور كبير في نشر العلم والمعرفة واليقظة الفكرية والصحة العلمية والتوعية المعرفية، فتصحو لدى الشعب مظاهر المحبة للعلم والتقرب إلى الدين والتطور في أغلب المجالات العلمية.

وقد حكي الشيخ الإمام عز الدين بن عبد السلام كيف كان اهتمام العلماء ومشاركة أغلب الشعب المناظرات والمناقشات العلمية الثقافية في ذاك العصر في كتابه قواعد الأحكام ومصالح الأنام^{١١٤}.

فنتج من هذه الحركات العلمية ظهور العلماء والصالحين ومولفاتهم الغزيرة التي شملت علومًا شتى وفنونًا مختلفة سواء أكانت دينية أم اجتماعية، وقد أوروثوا هذه الثروة العلمية العظيمة إلى الأجيال بعدهم. ظهرت المطولات والشروح المتن والمختصرات والاندماج بين العلوم المتقاربة كالمنطق والفقه وأصول الفقه، وعلوم العربية مع التفسير والحديث والموسوعات في التاريخ واللغة وغيرها^{١١٥}.

ومن أمثال هؤلاء العلماء الذين كان لهم دور بارز في حركة التأليف والتدوين الإمام الشيخ عز الدين بن عبد السلام الذي ألف في التفسير والحديث والفقه وأصوله، والإمام فخر الدين الرازي المتوفى سنة ٦٠٦ هـ، ألف تفسير الكبير والمختصر في أصول الفقه وأسرار التنزيل^{١١٦}، والإمام ابن قدامة المقدسي المتوفى سنة ٦٢٠ هـ الذي ألف في الفقه كتابه المعروف بالمغني، والشرح الكبير.

ومنهم أيضًا القرافي المتوفى سنة ٦٤٤ هـ وكتابه الذخيرة وشرح تنقيح الوصول، والإمام الآمدي المتوفى سنة ٦٣١ هـ - وهو من شيوخ الإمام الشيخ عز الدين بن عبد السلام - الذي ألف في أصول الفقه كتابه الإحكام في أصول الأحكام.

^{١١٤} الشيخ عز الدين بن عبد السلام، قواعد الأحكام، ص: ١٠٣/١، كثير، البداية والنهاية، ص: ٢٠٥/١٩/١٢، والمقريري، السلوك: ٣٥٤/٢، وسراج الدين محمود بن أبي بكر الأرموي، ١٤٠٨ هـ/١٩٨٨ م، التحصيل من المحصول، دراسة وتحقيق الدكتور عبد الحميد علي أبو زنيد، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ص: ٢٦/١.

^{١١٥} الزحيلي، العز بن عبد السلام، ص: ٣٥.

^{١١٦} ابن السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ص: ٨١/٨، والزركلي، الأعلام، ص: ٣١٣/٦.

وكذلك ابن الحاجب المالكي المتوفى سنة ٦٤٦هـ وهو كان صاحب الشيخ عز الدين بن

عبد السلام في السجن حين أصابت الإمام المحنة في دمشق ثم غادر معه إلى القاهرة، ومن مؤلفاته كتاب

منتهى السؤل والأمل في علم الأصول والجدل،

ومنهم أبو البقاء الضرير العكبري المتوفى سنة ٦١٦هـ الذي ألف في النحو كتابين هما اللباب

في علم النحو وإعراب القرآن، وابن أثير عز الدين المتوفى سنة ٦٤٦هـ الذي ألف في التاريخ كتابه

الكامل وكذلك الروضتين في أخبار الدولتين، وأبو شامة تلميذ الشيخ عز الدين بن عبد السلام الذي

ألف كتاب في التاريخ.

هذه نبذة يسيرة عن العلماء والظروف العلمية التي عاصرها الإمام الشيخ الجليل عز الدين بن

عبد السلام، فحينئذ نأمل أن الاهتمام بالعلم وأصحابه مفتاح للسعادة والاستقرار في مسيرة الحياة الدنيوية

والأخروية.